الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي

محاولات في التنظير والدراسة الأدبية

المؤلف

د. عماد الدين خليل

ISBN 9957-05-048-6 (ردمك)

دار الضياء

للنشر والتوزيع

☎ هاتف وفاكس : ٥٦٧٨٥٠٢

✉ صندوق بريد : ٩٢٥٧٩٨

عمان - الأردن

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٠/٧/٢١٧٨)

٨١٠

خلي خليل ، عماد الدين .

الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي / عماد الدين خليل . —

عمّان : دار الضياء . ٢٠٠٠

(١٩٥) ص

ر . أ (٢١٧٨) / ٧ / ٢٠٠٠

١- / الأدب العربي // الأدب الإسلامي /

✿ تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل ٢٠٠٠/٧/٩٦٥

بيان

كان العنوان الذي اختاره المؤلف حفظه الله لهذا الكتاب هو : "ستراتيجية الأدب الإسلامي" ، ولما كان من أهداف الأدب الإسلامي إنقاذ اللغة العربية من فوضى الأسماء الأجنبية ، ولما فوضنا المؤلف باختيار العنوان الذي نراه مناسباً أو تعديل العنوان الحالي ، فقد اجتهدنا في وضع البديل لكلمة ستراتيجية فاخترنا "الغايات المستهدفة" فأصبح عنوان الكتاب

"الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي"

نأمل أن نكون قد وُفقنا في ذلك .. و الخير أردنا .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢١-٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لا تزال حركة الأدب الإسلامي بحاجة ملحّة إلى المزيد من التخطيط والتنظير كي لا تمضي على غير هدى ، فتتكدس وتتضخّم معطياتها هنا ، وتتضحّل وتشحّ هناك .

إن التخطيط ورسم الأهداف البعيدة يمنح هذه الحركة توازنها المطلوب بين الدراسة والإبداع – وكذلك – بين الحلقات الأساسية لكل من هاتين الفعاليتين ، كما أنه يرشّد مسيرتها التي تزداد بمرور الوقت تجذّراً وانتشاراً .

والتنظير يضع التأسيسات الضرورية " للإسلامية " ويعمّق ملامحها من أجل أن تزداد تميّزاً عن المذاهب الأخرى ، وتتحقّق أكثر فأكثر بشخصيّتها المستقلة .

والكتاب الذي بين يدي القارئ يمثل – كما هو واضح من عنوانه المستمدّ من بحث بالاسم نفسه – محاولة أخرى لإغناء السياقين المذكورين بالضوابط والموجّهات والمعايير . فهو ينطوي على جملة دراسات ومقالات في التخطيط والتنظير ، فضلاً عن تعريفه بعدد من الإصدارات التي تغذي " الإسلامية " في مجال الدراسة والجمالية والنقد وتاريخ الأدب والفهرسة .

هذا إلى عدد من الدراسات تتابع إحداها قضية " اللون " في كتاب الله ، وتحلّل اثنتان منها الظاهرة الأدبية في مواجهتها للنظم الشمولية متمثلة بالتجربة الشيوعية البائدة .. وتمضي دراسة رابعة لكي تنفّذ قراءة نقدية لمعطيات "القرضاوي" الأديب الشاعر بمناسبة بلوغه السبعين ..

وبعد ...

فلعلّ في الكتاب ما يسدّ حاجة ما في عملية التأصيل الإسلامي للنشاط الأدبي، ويغري أدباء الإسلامية بالمزيد من العطاء ، وفق سلّم للأولويات يعرف كيف يقدّم الأكثر أهمية على المهم على الأقل أهمية ، من أجل تحقيق التوازن الذي نطمح إليه جميعاً في مسيرة الأدب الإسلامي ، وتمكينه من تنفيذ وتائر أعلى من الفاعلية والتأثير والعطاء .

ومن الله وحده التوفيق وهو حسبنا

الموصل في ١٩٩٩/٥/٩م

حول الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي

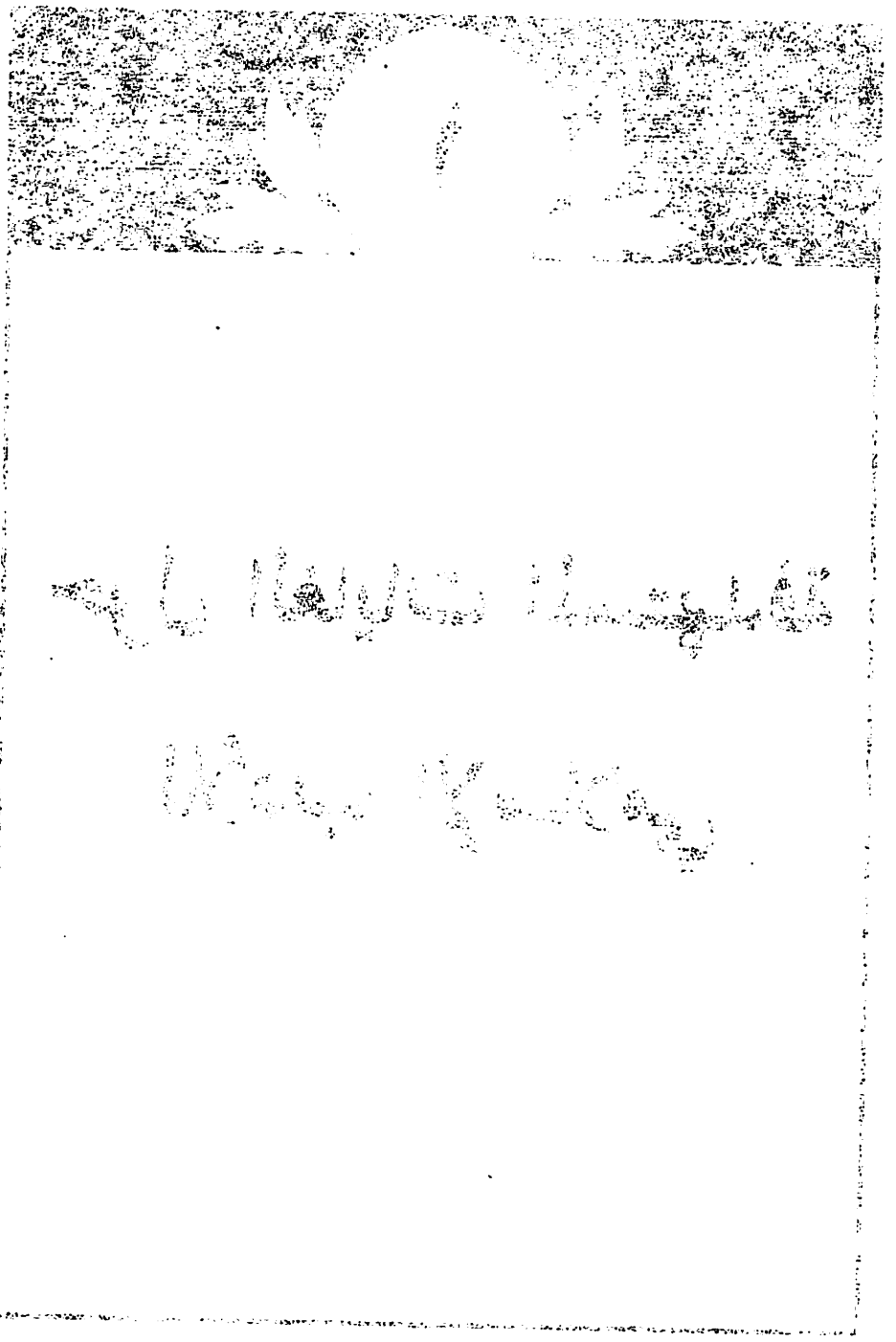

[١]

يبدأ الأخ محمد إقبال عروى بحث (استراتيجية النقد الإسلامي : حكاية جاد الله نموذجاً) بالتأكيد على خطيئة ذات طابع منهجي تتدرج من العام إلى الخاص في سياقات ثلاثة : النشاط الحضاري (الثقافي ؟) للعقل العربي الإسلامي ، النشاط العربي لهذا العقل على إطلاقه ، ثم التوجّه الإسلامي للنشاط الأدبي .

ويرى أن أساس الخطيئة يكمن في "غياب الأسئلة العلمية الملحّة التي تمسّ -حقيقة- نواة العقل العربي الإسلامي ، وتحرّكه من أجل إدراك مواقعه واستئناف نشاطه الحضاري " .. وبدلاً من ذلك "حضور الأسئلة الهامشية التي لا تعدو أن تكون خيوطاً متشابكة وضعت لعرقلة خطوات ذلك العقل وصرفه عن الاتجاه الذي كان من المفترض أن يسير فيه منذ عصر النهضة أو قبله بكثير" .

وبعيداً عن إثارة الجدل حول مصطلح "عصر النهضة" الذي قد يكون المرء على خلاف فيه -بدرجة أو أخرى- مع المؤلف ؛ لأنه يبعدنا عن الموضوع ، فإن القارئ يضع يده على "حكم" أصدره الأخ عروى على الحلقات الثلاث قد يتضمّن قدراً من التعميم ، ذلك هو أن حضور الأسئلة الهامشية قد وضع عن قصدية مسبقة لعرقلة خطوات العقل العربي الإسلامي ، وصرفه عن الاتجاه الذي كان من المفروض أن يسير فيه .

فإذا كان هذا الحكم ينسحب على الحلقتين الأولى والثانية (إلى حد ما) فكيف يمضي إلى الحلقة الثالثة التي صنعها الإسلاميون أنفسهم (بغضّ النظر عن نقاط الخلل في نسيج نشاطهم الأدبي) ؟ هل هناك في دائرة هؤلاء الإسلاميين قصد مسبق في إثارة الأسئلة الهامشية ، وتجاوز الأسئلة العلمية الملحّة لعرقلة النشاط الأدبي الإسلامي عن المضيّ إلى هدفه ؟

لا أعتقد أن المؤلف نفسه يقصد إلى هذا رغم أن تصميمه الهندسي للمشكلة ذات الأبعاد الثلاثة يوحي بهذا الاستنتاج .. وثمة مسألة أخرى .. إن الأخ عروى يشير في أطروحاته التمهيدية لبحثه المذكور إلى أن الأدب الإسلامي الحديث يشهد انتشاراً كمياً في مجالاته المتعدّدة ، غير أنه لم يعرف ، بعد ، نقلته النوعية ، وهو ينبّه "إلى أن الانتشار الكمّي ينبغي ألاّ يشغلنا عن تلمّس السلبيات الواقعية والمحتملة على حدّ سواء ، كما لا يمكنه أن يوهمنا بأن الحالة التي يوجد عليها ذلك الأدب تبعث في النفس أريج الطمأنينة والارتياح" .

فلو أن الأخ عروى اكتفى بهذا التنبيه لكان محقّاً تماماً ، لكنه في مقولته السابقة عليه يجزم بأن الأدب الإسلامي الحديث "لم يعرف بعد نقلته النوعية" و أن إنجازه -بالتالي- يتمركز عند الجانب الكمّي فحسب .

وبإيجاز شديد -قدر ما تسمح به صفحات كهذه- فإن الأدب الإسلامي عبر العقود الأخيرة حقّق حضوراً ملحوظاً في الساحة الأدبية المعاصرة ، وهو حضور متميّز بتوجّهه الرؤيوي الإسلامي ، ومعنى هذا أنه حضور نوعي .. نقلة نوعية ، بشكل من الأشكال ، في توجيه النشاط الأدبي بكافة طبقاته وفق مطالب ومرتكزات التصوّر الإسلامي ، بغض النظر عن نضج المحاولة واكتمالها ، أو فجاجتها ونقصانها ، فهذه مسألة أخرى ، إنما الذي نودّ التأكيد عليه أن نقلة نوعية حدثت بالفعل ، وبمقدور القارئ أن يرجع -على سبيل المثال لا الحصر- إلى القائمة التي أخرجها (الدكتور عبد الباسط بدر) في ببليوغرافيته للأدب الإسلامي، لكي يجد مئات المؤلفات والبحوث والمقالات التي تتمحور عند استراتيجية توظيف النشاط الإبداعي إسلامياً ، أي نوعياً .

فليس الأمر إذن أمر انتشار كمّي ، ولكنه انتشار يتضمن بعده النوعي بما أنه أدب متميّز، يحمل رؤية متميزة ، ويعبّر بالأدوات والتقنيات الأدبية عن همومه ذات الخصائص والملامح المتفرّدة .

بعد ذلك يمضي عروى إلى التأكيد على أن المنهج هو الحل الجذري لمجموعة من الأسئلة التي ينتظر أن تواجهنا في رحلتنا الأدبية والنقدية ، لأن ذلك سيوفّر علينا جهداً ووقتاً كبيرين ما دام سيدمجها في مشكلة واحدة . وتلك هي -بحق- الإثارة الأساسية لهذا البحث الجادّ ؛ لأن صاحبه ما يلبث أن ينتقل من العام إلى الخاص ، وهو يطرح السؤال الحيوي التالي : "في ظل بحثنا الحاضر .. ما هو المنهج الذي نقارب به العمل الإبداعي ، ونكشف من خلاله عن قوانينه وعوالمه المختلفة ؟" .

والباحث ، بعد ذلك ، يثير عدداً من المسائل التي يرتبط بعضها ببعض ويترتب عليه ، والتي تسعى إلى تغطية سائر القضايا الملحّة التي يثيرها الموضوع . فهو يؤشر بإسهاب على أسباب غياب المنهج والابتعاد عنه ، ثمّ يتحول إلى نقد المنهج الغربي نفسه ، ويصل إلى طرح دعوته المقنعة إلى ما يسمّيه "مفاوضة عادلة بين النقد الإسلامي و المناهج الأجنبية" وإلى "سحب ملفّ الدعاوى المتبادلة بين النقد الإسلامي والنقد الغربي في محكمة النقد !" وما يلبث أن يلجأ ، من أجل تأكيد أطروحته إلى تنفيذ المحاولة على نص روائي للكيلاني : (حكاية جاد الله) متمثلة باعتماد ، أو بعبارة أدقّ "توظيف" معطيات عدد من المناهج الغربية (البرنامج السردي عند جماعة انزوبوفون ... منظومة الحوارية الباختينية .. البنيوية ..) فيما يذكرنا بمحاولة (ستانلي هايمن) في كتابه (النقد الأدبي ومدارسه الحديثة) . ولن يتسع المجال -بطبيعة

الحال- للتعليق على هذه المناهج ، وبخاصة البنيوية الأكثر رواجاً ، فيما تناولناه في غير هذا المكان .

ومن أجل إلغاء أي شكّ قد يتبادر إلى الذهن ، فإن الأخ عروي يمارس -ابتداءً وبوضوح جازم- عدم التسليم المطلق بمعطيات المناهج الغربية الأكثر حداثة، على عواهنها ، خاصة وأنها مارست خطيئتين بحقّ النصّ والنشاط النقدي ، أولاهما فصل العمل الإبداعي عن خلفيّاته الحيوية الشاملة خارج النصّ ، وثانيهما ميلها ، بسبب ذلك ، إلى التجريد الذي قد يبلغ حدّ التعقيد والإغماض اللذين يبعدان عن إدراك روح النصّ الكلي بدلاً من مقاربته ، والذي قد يعرقل قدرة الخطاب الإبداعي عن الوصول إلى الآخر كما أراد له أصحابه أن يكون .

يصل الباحث إلى نتيجة أولية قد تكون فرصة طيبة أمام النقد الإسلامي في فعاليته الوظيفية المتميزة : إعادة "المستوى المضموني والمرجعي" للممارسة النقدية ، أي اعتماد خلفيات العمل خارج حدود النص ، جنباً إلى جنب -بطبيعة الحال- مع التوغّل في مفردات العمل الإبداعي ، داخل نسيجها الخاص ، وذلك -في نهاية الأمر- من أجل التحقّق بالتوازن المطلوب في الممارسة النقدية بين الوضوح والعمق معاً ، ولكي تكون الأداة النقدية قديرة حقاً على إضاءة النشاط الإبداعي ، دونما تطرف في هذا الاتجاه أو ذاك . وحينذاك ، وهذا هو المهم ، يكون النقاد الإسلاميون قد أخذوا وأعطوا ، وهم في كل الأحوال لم يتخلوا عن التزامهم بقناعاتهم الإسلامية ، ولم يتجاوزوا ما أسماه عروى "المظلّة الإيمانية" للنشاط النقدي الإسلامي .

[٢]

والحق أن مقال (استراتيجية النقد الإسلامي) يتيح فرصة طيبة للحديث عن إشكالية حدود التعامل الإسلامي مع معطيات الأدب الغربي ، في هذه الطبقة أو تلك ، أو في طبقاتها كافة والتي ينطوي عليها معماره الواسع المتشعب .

والمقال ، كما ألمحنا ، يتضمّن في قسمه الأول تنظيراً نقدياً ، بشكل من الأشكال ، أما قسمه التالي فيمضي للتعامل مع رواية للكيلاني على مستوى النقد التطبيقي ، ولذا سنقف عند القسم الأول للتأشير على القضايا الأساسية التي يثيرها.

في البدء يجب التذكير بأن حركة الأدب الإسلامي المعاصر ما دامت لم تزل في مرحلة التأسيس والتشكّل ، فلا بدّ أن تشهد تبايناً في وجهات النظر إزاء العديد من القضايا المرتبطة بالنشاط الأدبي ، هذا التباين ، أو التغاير ، الذي يتدرج في مساحاته الفاصلة بين الطرفين حتى

يبلغ في بعض الأحيان مدى بعيداً قد يعزل أحدهما عن الآخر ، ويقطع كل الجسور التي من شأنها أن تمكن أحدهما من العبور إلى الطرف الآخر .

وليست هذه الظاهرة أمراً استثنائياً ولا حالة شاذة ، أو مرضية ، على العكس إنها الظاهرة الأكثر حدوثاً في مراحل التشكّل والتأسيس ليس على مستوى الأدب فقط ، وإنما في السياقات الثقافية كافة (ولنتذكر ما الذي حدث في مرحلة تأسيس الثقافة الإسلامية عبر مجابهتها المبكرة لتحدّيات الثقافات الأخرى) .

إن التلاقح بين الأفكار المتغايرة في إطار الرؤية المشتركة يقود إلى مزيد من الخصب والتنوع والعطاء ، وهذا أمر بديهي ، ما دام هناك قاسم مشترك يجمع المتحاورين على الخطوط العريضة . لكن الأمر قد لا يقف عند هذا الحدّ ، فقد يمضي إلى ما هو أبعد فيتحوّل ، وهذا هو الجانب الخطر في الظاهرة ، إلى نوع من الفصام التام ، وإلى التشرذم في نهاية الأمر داخل توجهات متغايرة ترفض الحوار ، وتتشرنق داخل نسيجها الخاص دونما أية محاولة جادة لسماع صوت الآخرين ، فلعلّ في بعض مفرداته إضاءة أو إضافة ما تعين على النموّ المأمول .

والآن فإن من الضروري التحوّل من هذا التعميم الذي قد لا يعني شيئاً ، إلى التخصيص، أي إلى تنفيذه في إطار مشكلة محددة تباينت حولها وجهات النظر ، وتمخض عن ذلك سياقان من الجدل أحدهما إيجابي يعبّر عن نفسه بالرغبة في الحوار الجاد المخلص للوصول إلى نتائج أكثر دقة ، وثانيهما سلبي يرفض فتح أية نافذة لتبادل الرأي مع الطرف الآخر ، ويجيء مقال الأخ الناقد عروى لكي يحدّد المعضلة ويضعها بين يدي المعنيين بالأدب الإسلامي.

إنها قضية التعامل مع الأدب الغربي ، وعلى وجه التحديد مع المناهج الأكثر حداثة لهذا الأدب ، وتوظيفها في النشاط الدراسي والنقدي الإسلامي . وثمة ما يجب أن نقف عنده قليلاً قبل المضيّ لمتابعة ما يريد الباحث أن يقوله .

إن ساحة الأدب الإسلامي المعاصر تشهد اليوم تيارين أساسيين في مواجهة تحدّي الأدب الغربي ، أو على الأقل إزاء التعامل معه كنشاط ذي طبقات عديدة (وسنتجاوز الآن الوقوف عند تيار ثالث يتخذ موقفاً و سطاً بين القبول والرفض ، وهو في حقيقة الأمر الحالة المتوازنة المطلوبة ، والتي يؤمّل أن يلتقي عندها التياران الآخران إذا فتحا باب الحوار المخلص الجاد للوصول إلى قناعات مشتركة) .

البعض يرفض هذا التعامل ابتداء ، وقد يدين أصحابه بضعف وتخلخل الأسس الإسلامية لثقافتهم الأدبية .. يرفض هذا التعامل بغض النظر عن الطبقة ، أو المعطى الأدبي الغربي ، وموقعه من المعمار الشامل ذي الطبقات والأدوار ، بل هو يرفض حتى استعارة بعض

مصطلحات هذا الأدب وتوظيفها إسلامياً ، ولو بصيغة مرحلية تستهدف التوصيل لحين إيجاد أو نحت مصطلحاتنا الإسلامية الخاصة بنا .

والبعض الآخر يذهب في هذا التعامل إلى حدوده القصوى ، وأيضاً دونما تمييز لموقع المعطى الغربي من خارطة النشاط الأدبي .

وأجدني مضطراً للتأكيد على وجود خارطة ، أو معمار ذي طبقات عديدة في دائرة النشاط الأدبي الغربي ، لأنها ليست كلها سواء في مدى تماسّها مع المنظور الفكري أو العقيدي ، أو حتى الثقافي ، وبالتالي فإن وضعها في سلة واحدة ، والحكم عليها بصيغة المصادرة ، سيقود إلى خطأ في الموقف من التعامل معها في الحالتين ، أي في حالة الرفض الكامل أو القبول الكامل . ومن أجل توضيح هذه النقطة بالذات ، التي هي عصب الموضوع والتي لم يدعها عروى تمرّ دون التنبيه عليها ، لا بدّ من تذكير القارئ بأن النشاط الأدبي الغربي يتضمن الفعاليات أو المعطيات التالية التي قد يرتبط بعضها ببعض وقد يفضي بعضها إلى بعض، ولكنها ليست بالضرورة انبثاقاً أو تماسكاً عضوياً ، بحيث أن التعامل مع أي طرف منها سيجرّ وراءه تأثيرات الطبقات أو المفردات كافة .

فبعد رحلة قرون متطاولة من الجهد والعطاء ، والمحاولة والتجريب ، أخذت معطيات الأدب الغربي المساحات الأساسية التالية :

(١) المعطيات الإبداعية وفق أنواعها المعروفة ، والتي تشكل قاعدة البناء كله .

(٢) المنظور أو الرؤية الشمولية التي تتشكل في ضوئها هذه المعطيات فتتكون بموجبها .

(٣) مدرسة أو مذهب أدبي كالكلاسيكية والرومانسية والواقعية والوجودية..الخ .

(٤) الجهد أو المنهج النقدي الذي يسعى لإضاءة الأسس الجمالية للنصّ الإبداعي ، وتحليله ، فيضع له المبادئ والقواعد والأصول ، ثم يبدأ في تنفيذها وصولاً إلى قيمه الفنية ودلالاته المضمونية ، وطبيعة ارتباطه بالمنظور وبالمذهب الذي يندرج تحته .

(٥) الطريقة أو المنهج الذي يدرس الحركة أو الظاهرة الأدبية عبر مساراتها الشاملة في الزمن والمكان ، وفي ضوء قوانينها وارتباطاتها الداخلية الصميمة (ويجيء تاريخ الأدب لكي يندرج تحت هذا المساق) .

(٦) النظرية التي تلمّ هذه المساحات وتنطوي عليهما جميعاً .

فالنشاط الأدبي ليس إبداعاً فحسب ، كما أنه ليس قراءة نقدية للنص الإبداعي فحسب، وإنما هو فضلاً عن هذا وذاك ، مذاهب ومدارس في الإبداع تتشكل وفق المنظور أو الإطار الشامل الذي يتخلق الجهد الإبداعي في رحمه ، كما أنه (مناهج) و (طرائق) لدراسة

الأدب وتصنيفه وفق سياقاته في الزمن والمكان ، وفي ضوء قوانينه وارتباطاته الداخلية ، ثم هو في نهاية الأمر نظرية شاملة تلمّ هذا كله وتبحث عناصر الارتباط والتأثّر والتأثير بين طبقاته ، وتؤثّر على النسب والأبعاد بين معطياته ، ثم تسعى لاستخلاص التوجهات الشمولية التي تندرج وتصبّ فيها مفردات النشاط الأدبي كافة لكي تصنع أو تصوغ توجهاً ذا شخصية محددة وملامح متميزة .

صحيح ، مرة أخرى ، أن ثمة ارتباطاً من نوع ما بين هذه المساقات أو الحلقات الست ، ولكنه ليس بالضرورة ارتباطاً بينها جميعاً ، فقد يكون بين حلقتين أو ثلاث وتظل الحلقات الأخرى أو بعض مفاصلها سائبة حرّة قد تتأثر بالحلقات الأخرى ، وقد تؤثر فيها ، وقد لا تتأثر أو تؤثر بحال .

ومن خلال هذه الثغرة قد نجد ممراً مشروعاً للدخول إلى معمار هذا الأدب أو إلى أحد أدواره والإفادة منه "وظيفياً" في إنضاج حركة الأدب الإسلامي واستكمال مقوّماته .

ولعل هذا ما أراد عروى أن يقوله في و احدة من تأشيراته الأساسية على استراتيجية النقد الإسلامي " فلئن كانت الحساسية تجاه ضبط المصطلحات في حقول الفكر الإسلامي لا تزال شبه غائبة في بعض القطاعات فإنها أكثر غياباً في حقل النقد الإسلامي . ودون أي استطراد مُمل أشير إلى أن الذين أبعدوا إمكانية التلاقح المنهجي لم يتبينوا الفروق الدقيقة بين المصطلحات التالية : النظرية والمذهب و المنهج .. .

وعروى من أجل توسيع نطاق الاستفادة "المحايدة" من المنهج الغربي يشير إلى إمكان تغييب مصطلح المنهج مؤقتاً ، واستبداله بمفهوم "الأداة" بل إنه يمضي إلى ما هو أبعد لإزالة أي لبس قد يتبادر إلى الذهن ، فيرى في التعامل مع هذه الأداة –المنهجية فرصة للتموضع الإسلامي في منهج الغير "لتقليب أوراقه والكشف الدائم عن إيجابياته وسلبياته" ، و "لتوجيه الضربات إليه من الداخل" وهو من أجل تقديم المزيد من الضمانات خلال التعامل مع المنهج ، يقدم ضوابط أخرى منها –على سبيل المثال– إمكان تفكيك المنهج الواحد ، وانتقاء العناصر الملائمة ، والتي لا ترتطم بالرؤية الإسلامية في التعامل النقدي ، ورفض اعتبار المنهج تكويناً بيولوجياً يصعب تفكيكه .. كما ترى التوجّهات التي تدعّى العلمية ..

ومنها –كذلك– اختياره الوقوف بصرامة تجاه ما يسميه "التمادي داخل المناهج الغربية"، و "نسيان المفاهيم الأدبية الإسلامية التي لا بدّ من أن تتخذ وظيفة المظلة" ، وذلك لإيمان الكاتب العميق "بأن معظم تلك المناهج قد آلت إلى فصل النقد الأدبي عن المعطيات والإحالات المرجعية المتمثلة في العوالم الخارجة عن إطار النص الأدبي" .

المنهج -إذن- هو غير المذهب ، وغير النظرية ، وهو لا يخفى عليه ، بحكم خبرته النقدية، أن المنهج قد يرتبط بخلفيات تنظيرية أو مذهبية وقد يتجذّر في الرؤية أو العقيدة ، لكن هذا يجب ألاّ يكون حكماً نهائياً ؛ لأن هناك من المناهج ، أو بعبارة أدقّ مساحات ومفاصل في نسيج المناهج -ما يمكن أو تكون بمثابة أداة حيادية ، تقنية ، صرفة ، قد يكون التفريط بها تضييعاً لفرصة ممتازة لإضاءة المسالك أمام الأنشطة النقدية الإسلامية ، وبخاصة في مجال النقد التطبيقي .

خلاصة القول إننا بإزاء فرص للتوظيف في سياق حركتنا الأدبية تزيدها نموّاً و خصباً واكتمالاً ، وتقرّبها أكثر من لغة العصر ومن الوصول إلى الآخرين خارج دائرة الإسلامية نفسها ، لكي تقنعهم بمعطياتها في هذا الجانب أو ذاك من جوانب النشاط الأدبي : إبداعاً أو تصوّراً أو دراسة أو تنظيراً أو نقداً ..

فإذا كانت مفردات هذه الفرص وقنواتها ذات طابع تقني صرف لا يرتطم من قريب أو بعيد بأية من القيم والمنظومات الإسلامية فلماذا نفرّط بها ونعلن الحرب عليها ؟ وإذا كان الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد نصّ بتقييدها ، كما تقول القاعدة الفقهية المعروفة ، فلم نسوق المباحات إلى دائرة الحرمة ؟ ولم نسدّ القنوات التي قد تمنح إسلاميّتنا أدوات أكثر قدرة على التعبير عن الذات وإدراك الأبعاد الحقيقية للإبداع كأداة للتعبير ؟

وسيكون من فضول القول التذكير بأن الاندفاع غير المبرمج باتجاه الأخذ عن النشاط الأدبي الغربي ، دونما ضوابط ولا معايير إسلامية تفرز وتعزل وتميّز وتختار ، سيكون نوعاً من الانتحار الثقافي ؛ لأنه سيقود إلى فقدان الهوية والذوبان في منظور "الآخر" .

وهكذا تجد الحركة الأدبية الإسلامية نفسها في أمسّ الحاجة إلى مزيد من الحوار المرن المفتوح ، غير المتشنج ، بين التيارين من أجل أن تفيء الأطراف كافة إلى الوسطية التي هي نبض الممارسة الإسلامية الأصلية في كل منحى من مناحي الحياة . وهي ليست موقعاً جغرافياً، ولا اختياراً هروبياً لمواقع السلامة ، وإنما على العكس ، انتقاءً إرادياً صعباً لعناصر الإيجاب في الظواهر كافة من أجل التحقّق بأكثر الصيغ توافقاً وانسجاماً وقدرة على العطاء .

[٣]

إن مقال الأخ عروى إذ يشير إلى ضرورة وضع استراتيجية للنقد الإسلامي يثير فيما يثير هذه الإشكالية التي يجب أن نعكف بأقصى درجات التفاهم والمرونة على تجاوزها باتجاه أكبر قدر ممكن من التوحّد في السياقات الرئيسية لهذه الاستراتيجية . وعلى هذا فإن المرء يجد نفسه مضطراً للمضي خطوة أبعد، وهي أننا بحاجة إلى استراتيجية أدبية إسلامية شاملة لا تقتصر

على دائرة النقد وحده ، وإنما تسعى لاحتواء وترتيب سائر الأنشطة التي ينطوي عليها هذا النشاط إبداعاً وتنظيراً ومَذْهَبية ودراسة ونقداً .

ولن تعني دعوة كهذه أن المعطيات الأدبية الإسلامية المعاصرة التي قدّمت عبر العقود الأخيرة لم تمسّ هذه المسألة ، وأن الأدباء الإسلاميين لم يحاولوا ، كلّ من جهته ، أن يخطط لها ويرسم خرائطها ، ولكنّها تعني أن الأنشطة الفردية لم تعد تكفي ، على غناها وعطائها المكافح الخصب ، وأنه قد آن الأوان للتحوّل إلى العمل الجماعي المبرمج المرسوم ، و التحلّي بروح الفريق من أجل تحقيق الأهداف المتوخاة بأكبر قدر من الدقة ، والانسجام ، وتجميع الطاقات المبعثرة ، والاقتصاد في الجهد ، وتجاوز التناقض والاضطراب اللذين قد تتمخض عنهما سلبيات شتى ليس أقلّها شأناً غياب المنهج ، لا في مجال ا لنقد وحده ، وإنما في دائرة النشاط الأدبي كله . وتلك هي بالتحديد مهمة (رابطة الأدب الإسلامية العالمية) التي أخذت هذه المبادرة الصعبة على عاتقها ، وحملت الأمانة الثقيلة ، وقطعت خطوات طيبة في الطريق الطويل.

وإذا كان لا بدّ من تقديم ضوابط واقتراحات بصدد استراتيجية أدبية شاملة كهذه ، فيمكن التأشير على عدد من المرتكزات التي يمكن أن يغذّيها الباحثون -بمرور الوقت- بما يجعلها أكثر ملاءمة وقدرة على تحقيق المطلوب :

أولاً : تحديد طبقات المعمار الأدبي الغربي ومدى ارتباط كل منها بالخلفية التصوّرية أو تحرّرها منها ، لتحديد إمكانية الرفض أو القبول أو الانتقاء .

ثانياً : القيام بجهد شامل لجمع وفهرسة الضوابط والمعايير الشرعية التي يمكن أن ترشّد النشاط الإسلامي المعاصر في تعامله مع الغير والتي تتوجب متابعتها في الأصول القرآنية والنبوية ، وفي المعطيات الفقهية ، وفي السوابق التاريخية .

ثالثاً : السعي لتحقيق توازنات في المعطيات الأدبية الإسلامية على مستويين :

أ – النقد والدراسة والمنهج والمذهب والتنظير .

ب– النوع الأدبي ما بين شعر وقصة ورواية ومسرحية وسيرة ومقال . وذلك من أجل ألاّ يطغى جانب على جانب ، أو ينحسر جانب على حساب جانب آخر ، الأمر الذي يتمخض عنه نوع من التكرار والتضخّم والهدر في الطاقة من جهة ، والغياب والانكماش والضمور من جهة أخرى . إن الحركة الأدبية الإسلامية المعاصرة لبأمس الحاجة إلى قدر من التوازن في الفاعلية يمكنها من تغطية مطالب النشاط الأدبي كافة وبقدر متكافئ من الجدّية والمتابعة والاهتمام . فإن الذي يؤخذ على

هذه الحركة -على سبيل المثال- أنها بدأت تعاني من نوع من التضخّم في الإبداع، أما النقد التطبيقي والمنهج ، فإن فقرها فيه يبدو واضحاً . وهكذا الحال بالنسبة للنشاط الإبداعي نفسه حيث يمكن للمرء أن يلحظ بوضوح طغياناً للمعطيات الشعرية وضموراً وانكماشاً في القصة والرواية والمسرحية والسيرة الذاتية ..

إن هذا يقودنا إلى المقترح التالي :

رابعاً : وضع خطة زمنية (خمسية مثلاً) تتبنّاها مؤسسة جماعية كرابطة الأدب الإسلامي أو المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، تُرتّب فيها أولويات العمل في ضوء التوازنات الملحّة ، ثم تعهد بالتنفيذ إلى عدد من الأدباء الإسلاميين نقاداً ومنظرين ودارسين ومبدعين ، وهكذا ، ومن خلال برمجة النشاط الأدبي الإسلامي ، يمكن إلى حدّ كبير ملء الفجوات وتدارك الاختلال الذي تشهده الساحة الأدبية الإسلامية ، والتحقّق بقدر طيّب من التوازن في المعطيات ، بعد عقود طويلة من الجهد ذي الطابع الفردي الارتجالي الذي تمخض عنه هذا الاختلال المتمثل بنوع من التكديس والتكرار في جانب ، والضمور والانحسار في جانب آخر.

خامساً : السعي الجاد لإصدار مجلة شهرية قادرة على استيعاب مطالب النشاط الأدبي الإسلامي بسائر أوجهه ، بدءاً من خطط العمل ، و المقترحات ، مروراً بالجدل والحوار ، وانتهاء بعرض المعطيات الأدبية دراسة ونقداً وتنظيراً وإبداعاً . ويمكن في هذا المجال أن تمكّن مجلة متخصصة بهموم الأدب الإسلامي (كالمشكاة) من الصدور بشكل شهري منتظم ، ومن جعلها بالحجم الذي يمكنها من امتصاص زخم هذه المطالب كافة ، جنباً إلى جنب مع (المسلم المعاصر) التي يمكن أن توظّف جانباً من صفحاتها وأبوابها أو تفتح ملفاً لهذا النشاط .

سادساً : تصعيد التفاعل بين الأدب الإسلامي المكتوب بالعربية وذلك الذي يدوّن بلغات الشعوب الإسلامية الأخرى ، عن طريق حركة أكثر نشاطاً في مجال الترجمة من العربية وإليها ، وهو أمر ضروري ليس فقط لتحقيق التعارف المطلوب بين أدباء يحملون هويّة إسلامية ذات طابع عالمي يقتضي تعارفاً كهذا ، وإنما للاستفادة من الخبرات المتنوعة لمعطيات أدباء هذه الشعوب التي عزلتها حواجز اللغة إلى حدّ كبير ، فضلاً عن أن تصعيداً كهذا سيمنح الأدباء الإسلاميين ثقلاً أكثر على مستوى العالم بسبب من انتشارهم في المكان وامتدادهم إلى بيئات ثقافية متغايرة .

سابعاً : تصعيد الحوار بين الأدب الإسلامي المعاصر والأصول التراثية لأدبنا العربي للإفادة القصوى من إمكانات تلك النصوص والتجذّر أكثر في العمق الثقافي -الحضاري

للأدب الإسلامي .. شرط أن يتمّ ذلك بأكبر قدر من المرونة والحرية في التمحيص والفرز والانتقاء والتقبّل أو الرفض ، وشرط ألاّ يتحول المعطى التراثي بنتيجة الإلحاح المتزايد على احترامه والأخذ عنه ، إلى دائرة القدسية التي قد تجعله يمارس نوعاً من المصادرة أو التسلّط القسري على العقل الأدبي الإسلامي المعاصر.. إنما هو التوازن ها هنا أيضاً من أجل التوصل إلى أكثر صيغ الحوار بين الماضي والحاضر فاعلية وعطاء .

ويمكن في هذا السياق تنفيذ عدد من الخطوات لتحقيق أكبر قدر من الإفادة في توظيف العمق التراثي لصالح حركة الأدب الإسلامي المعاصر ، ويمكن أن تأخذ هذه الخطوات التسلسل التالي :

(١) فرز وفهرسة المعطيات الأدبية التراثية التي ترفد (الإسلامية) شعراً ونثراً ودراسة ونقداً .. إلى آخره ؛ لأن هذا الجهد سيضع بين أيدي الباحثين المادة التراثية الجاهزة لأغراض التحقيق والدراسة .

(٢) تحقيق النصوص والمقاطع المهمة التي لم تنل نصيبها الكافي من التحقيق والاهتمام .

(٣) دراسة وتحليل الأعمال النثرية التي لم تنل اهتماماً كافياً ، فإذا كان الشعر في بعض مراحله قد لقي اهتماماً كهذا ، فإن أعمالاً مثل بعض مؤلفات الجاحظ أو التوحيدي ، ونصوصاً إبداعية مثل مقامات الحريري أو الهمذاني أو ألف ليلة وليلة أو بعض السير الشعبية ، إلى آخره ، تنتظر من يعكف على دراستها في ضوء الإسلامية لمعرفة ما يمكن أن تقدمه في هذا المجال ، لا سيّما وأنها تعكس بعداً اجتماعياً لم تكد تمسّه البحوث التاريخية إلاّ لماماً .

(٤) متابعة السياق النقدي لتراثنا الأدبي والتأشير على مدى ارتباطه أو انفصاله عن الإسلامية .

(٥) فحص طبيعة العلاقة بين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وبين الدراسات الأدبية التراثية .

(٦) إقامة ندوات وفتح ملفّات خاصة في عدد من المجلاّت المعنية لمعالجة هذه الظاهرة أو تلك في تراثنا الأدب من مثل "التراث الأدبي الصوفي وصلته بالإسلامية" و "علاقات الأخذ والعطاء بين التراث الأدبي العربي وآداب الأمم الأخرى" ، و "إمكانات توظيف التراث في أنشطة الأدب الإسلامي المعاصر" و "مناهج المستشرقين في دراسة التراث الأدبي العربي" ، و "السيرة الذاتية في تراثنا الأدبي" ، و "مناهج تدريس التراث الأدبي في جامعاتنا" ، و "بلورة وبناء منهج إسلامي في

دراسة تاريخ الأدب" ، و "المرأة في تراثنا الأدبي" ، و "الطفولة في تراثنا الأدبي" ، و "ملامح المجتمع المسلم في تراثنا الأدبي" ، و "التراث الأدبي والسلطة" ... إلى آخره .

إن التجذّر في التراث ليس ترفاً أو اختياراً ، ولكنه قدر كلّ فاعلية ثقافية تسعى لأن يكون لها مكان في العالم ، وثقل على خرائطه من خلال تشبّثها بالشخصية المتفرّدة والملامح ذات الخصوصية ، ولن يكون هذا بدون الامتداد صوب البعد التاريخي أو العمق التراثي للتحصن به ؛ والاستهداء بمعطياته جنباً إلى جنب مع الأصول العقيدية التي تشكّل قاعدة العمل الأساسية ، وبوصلة الانطلاق في بحار الدنيا .

ثامناً : لن يكفي الأدب الإسلامي اعتماده على الكتاب ، والمجلة ، و الصحيفة كما لن تكفه ندوات ومؤتمرات دورية تقام بين الحين والحين لترشيد مسيرته والتخطيط لمستقبله ، بل لا بدّ إلى جانب هذا كلّه ، من منح قدر كاف من الاهتمام للساحتين الأكاديمية والإعلامية ، ليس فقط عن طريق دفع الطلبة إلى الاحتكاك بمطالب هذا الأدب ، والتعرّف عليه ، أو التعريف به من خلال كتابة أطروحاتهم عنه ، وليس -كذلك- عن طريق تخريج المزيد من المتخصّصين أكاديمياً في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الأدب ، وإنما ، فضلاً عن هذا كلّه فتح باب للحوار المرن الواسع المتشعّب ، مع دوائر الأدب خارج الإسلامية ، من أجل إيصال الصوت الإسلامي إلى أصحابها ، والتمكين بالتالي من رفع هذا الصوت إعلامياً ، وفتح الطريق أمامه كي يفرض نفسه في الساحات الأدبية المعاصرة ، حركة تملك ثقلها وحضورها وقدرتها على التعامل مع الآخرين من منطلق الثقة بالذات ، واليقين العميق بالانشار والتأثير .

تاسعاً : فتح باب الحوار بين المعنيين بالأدب الإسلامي على صفحات المجلات المعنية للتوصّل إلى قناعات مشتركة ترفد حركة الأدب الإسلامي وتحصّنها ضد الغلوّ أو التسيّب أو التشرذم ... وتخصيص أبواب ثابتة لهذا الحوار في المجلاّت المذكورة .

عاشراً : أن تفتح المؤسسات الثقافية الإسلامية (كالمعهد العالمي ورابطة الأدب الإسلامي) صدرها للاتجاهات كافة ما دامت تصدر عن نيّات مخلصة ، وتلتزم الضوابط الشرعية حيثما توفّرت ، وتستفيد في الوقت نفسه من الخبرات البشرية المتقدّمة في مجال التوظيف للانتقال بالنشاط الأدبي الإسلامي نحو الأحسن .

إن محاولة كهذه تتطلب ولا ريب قدراً من المرونة والإدراك لمطالب العصر من أجل إتاحة المجال لكلّ التيارات الإسلامية لكي تشقّ طريقها وتعمقه ، وتغني معطياتها بالمزيد ، تأصيلاً وتوظيفاً ، ما دامت جميعاً تصبّ في بحر التصوّر الإسلامي، وتخدم مطالب هذا الدين ، سواء

وهي تتعامل مع الأصول العقيدية أو المعطيات التراثية أو تحدّيات العصر .. مع العلوم والقواعد الشرعية أو مع العمق الثقافي أو مع فكر الغرب وثقافته ، ليس على سبيل التأثّر والانبهار ، وإنما التمحيص والانتقاء والتوظيف .

كلٌّ يعمل جهده ، ويكدح مخلصاً ، من أجل أن تجتمع الجهود ، بمحبة ومرونة وإخلاص، لكي تبنى الاستراتيجية الشاملة ، وتمضي بمفرداتها صوب التنفيذ .

ولن يكون ذلك قبل أن نطرح على أنفسنا عشرات من الأسئلة الملحّة ، ليس على هامش النشاط الأدبي ، وإنما في صميم هذا النشاط وعبر شبكته الأساسية .